

القاهرة ، والأخبار المتصلة به ، في كتب من ترجموا له من المؤلفين أمثال : المقرئ التلمساني في نفع الطيب ، وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ، وابن القاضي في درة الحجال وغيرهم ، لكي نبنى سيرة هذا الصوفي الإسباني المسلم ، ونرسم صورة موجزة لحياته في ضوء ما قدموه لنا .

فيما يقول ابن عروى عن نفسه ، ولد في مرسية عام ٦٥٠هـ = ١١٦٥م ، في بيت حسب وتقى ، وكانت أسرته ميسورة الحال ، وجرت بين أسلافه أحداث ذات مواقف سريعة ومتقلبة ، انتهت بهم إلى حياة التقشف والعزلة والانزواء ، بعد حياة دنيوية عريضة ومرسلة ، وأحد أحواله ، يحيى بن يوجان ، ملك تلمسان ، استجاب يوماً لواعظ مرابطي خشن ، التقى به يوماً يمتطى صهوة جواده ، ويتجول في ضواحي المدينة صحبة رجال بلاطه ، ترجل من على الحصان ، وتزع ملابسه الملكية ، وبدأ يبكي ، ثم ذهب بعد ذلك يخدم الله رفقة هذا الصوفي ، وفي الرباط كان يعيش على جمع الحطب من الغابات ، ويذهب به لبيعه في تلمسان ، فيجد من الناس التقدير والاحترام ، ويلتمسون منه البركة والدعاء .

وشيء شبيه بهذا دفع صاحبنا ابن عروى إلى تغيير أفكاره وحياته ، وظل حتى في شيخوخته يذكر والأسى يملأ قلبه ، والندم يغشى جوانحه ، تلك الأيام البهجة من شبابه ، مرت دون أن يذكر اسم الله فيها ، وإنما قضاها في الصيد والقنص عبر وديان قرمونة . وبالمة دل ريو ، قريباً من إشبيلية ، على خيل والده ، رفقة بوازيه . وقد أمضى الأعوام الثمانية الأولى من طفولته في مرسية ، ثم انتقل والده إلى إشبيلية ، ولا يذكر من أيامه تلك إلا بعض الكلمات تخلفت في سمعه من خطبة الجمعة التي كان يلقيها إمام المسجد الجامع في تلك المدينة .

وعاش فترة شبابه في إشبيلية ، وككل الشبان على أيامه ، درس القراءات والأدب والتاريخ وغيرها ، وحرص أحد أعمامه على أن يدرس له الشعر ، وفي رحلة قام بها إلى قرطبة نظم بعض الأبيات بمناسبة زيارته لمدينة الزهراء ، وكانت يومئذ أنقاضاً ، وأصبحت مأوى للوحوش والحيات ، وعندما بلغ أشده عين كاتباً في حكومة إشبيلية .